ثمرة الصنوبر

1

عندما كان يبتعد كنت أقترب من كون داخلي لطالما هربت منه أو لم أكن ألمسه، لأكتشفه عندما التقيت بوليد، هذا الفتى الذي يمتلك قدرة خارقة على رؤية ما وراء الجدران، وما أسفل الطابق الذي عليه قدميه، وليد كان جريئا وهو يصف ملابسي الداخلية كي أصدق أن له قدرة خارقة تتجلى في رفع الحجب عن عينيه... قدرة رهيبة لم يجرؤ قط على كشف حقيقتها لغيري أنا. استغربت لم أنا وليست غيري؟ كان علي أن أتحمل فيما بعد أن يراني عارية، ولكنه لم يكن قادرا على رؤية باطن ذهني. وما يجول في فكري وتفكيري. كنا صديقين ولا زلنا، كنت أهرع إليه كلما اعتزلت بي وحدتي وسيطرت علي ظنوني، تعرفت عليه، عندما كنت أبحث عن نفسي، ضمن جماعة تسمي نفسها "هالة النور"، كانوا مثلي ضالين يبحثون عن الهدى، ولم يدركوا إلى ذلك الحين أن كل واحد منا كان يبحث عن القوس الذي يتمم استدارة قلبه.

قبل أن أتعرف على "هالة النور" وعلى وليد كنت سيدة تعيش تحت كنف رجل تحبه حد العبودية، كنت أعتبره السبيل الذي سيقودني للجنة، وكان يحترف حقا فن الإغواء

وهذا ليس ببعيد عليه، فهو رجل السياسة، وأنا سيدة الكلمة. روائية في ربيعي 26، سياسي في عمره التاسع والثلاثين فتاة قروية بسيطة، رجل فاحش الثراء وصاحب الحركات المدروسة. رغم الطبقية التي كانت تحول بيننا كتب لعيوننا أن تلتقي، لا أدري لماذا أمام عيونه البنية فقدت جميع أبعادي، وأحببته. عندما وقعت له روايتي الثانية "العرافة" طلب مني أن أكشف له الورق. وافقت ليس لأنه رجل تتبعه الأضواء، لكن لأنه رجل تبعته عيوني ونبضات قلبي لم يكن من السهل علي أن ألتقي به في أي مكان عمومي فهو خاص. قررنا أن نلتقي في مقهى قريب من شاطئ المهدية بالقنيطرة، مكان جميل وهادئ، يرتاده القليل من الزوار في هذا الفصل البارد، يشهد البحر هيجانا لا يستقطب إلا هواة الصيد، وعشاق رياضة ركوب الأمواج، وعشاقا هاربين من العيون مثلنا معا، وبعض رجال الدرك الذين يركبون صهوة الخيل في جولات متباينة بحثا عن غرقا أو عن عشاق يتبادلون القبل خلف الصخور، أو فوضويين يلسعون رمال البحر بما يلوث رماله. كانت السماء في ذلك الوقت المتأخر من الليل متلبدة، تسمح أحيانا ببروز بعض النجمات اللامعة وأحيانا تخفيها ليبرز القمر بشكل غير جلي، كان يظهر لي حزينا وكئيبا ولا يماثل مرآة تحاكي فرحة قلبي. كانت الطبيعة بكل مقوماتها لا تحاكني ولا أحاكيها، ربما كانت

تحاكي أناسا آخرين حزانى فقدوا عزيزا أو قريبا، مرضى أو منكوبي حروب، لاجئين، أو أناسا فقدوا كل الأبعاد وغطاهم الهم والحزن. كنت أستغرب لماذا المقهى شبه فارغ إلا من النادلين! أخذنا لنا مكانا قرب زجاج النافذة التي تتجاوز طولي، أحببت أن أراقب حركة الأمواج وكيف كان مصارع الأمواج يغزوها كإبرة ذات خيط رفيع من فضة تلم شتات الموجات.

-ماذا تشربين؟

سألني دون أن يترك للنادل حق السؤال، كنت بحاجة لكوب شاي كبير ينظم خلطة أعشاب. وكان بحاجة لكوب قهوة برازيلية مركزة تعدل مزاجه الذي عكرته أشياء أجهلها نقلتها ملامحه فقط. وعددت تأويلاتها، ربما بسبب اجتماع صباحي، ربما تشاجر مع زوجته، ربما يخشى أن يراه أحد برفقتي. لم يكن يهمني الأمر بالقدر الذي كنت أهتم لشخصية جديدة أستجلبها من هذا العالم لعالمي المحبب على الورق، كان شخصية تستحق أن أغرز فيها كدمية من الشمع كل خيوط النفط وأضرم فيها وقود الكتابة فتولد أنوارا جميلة أمام كل من فكر في تتبع نفقي الخاص.

أخيرا أحضر النادل الشاي والقهوة، ليصبح المقهى فارغا تماما إلا منا معا، وموسيقى باخ تفرض نفسها علينا، أنا التي كنت أفضل صوت الموج وكنت أعلق صدف البحر أقراطا في

أذني ليكون البحر قريبا مني. بدأ الرجل يتفحصني ويتفحص تلك التفاصيل التي تجعل مني لوحة يشتهي رسمها، دقق النظر في الأقراط، ثم تحول للجولان بعينيه العميقتين فوق صدري الذي يحمل قلادة بارزة ولامعة، ثم بدأ يدقق النظر في أصابعي الدقيقة التي لا يخلوا واحد منها من خاتم. خواتمي مرصعة بالأحجار الكريمة. وخاتمه الذي يزين بنصره يحمل تاريخ امرأة في حياته.

-غجرية،

-بل، ابتهال فقط.

لم يستطع أن يتمهل أكثر، طلب مني أن أحتسي الشاي وأشرع في كشف الورق، لم أعطه الجواب الشافي الذي كان يبحث عنه، فقد أخبرته ببساطة أنه خلط بين بطلة روايتي وبيني. فابتهال ليست بعرافة ولكن قمر بلى. لم يصدقني، وأسر أن افتح الورق كما تفتحه قمر سيكون الأمر سهلا، الحقيقة الأمر ليس سهلا، كما يتوقع لكن قررت أن أقنعه بحقيقة ما أقول. أخرجت الورق الذي كنت أستعين به للكتابة ولقيادة شخصيات روايتي. خلطت الأوراق جيدا، وسألته عن أي شيء يريد أن يستطلع أكثر.

-كل شيء

أعطيته ثلاث ورقات، واحدة هي رقم واحد رمز "الكوباس"، وترمز للسكن والاستقرار، الثانية رقم عشرة "صورة امرأة تحمل دينارا من ذهب"، و ترمز للمرأة في حياته وقد تتغير المرأة في الورق حسب شكلها، وورقة أخيرة تحمل رقم واحد وتحمل رمز "درهم كبير" و ترمز للحياة المهنية، أعطيتها له طلبت أن يغمض عينيه، و أن يضعها على جانبه الأيسر، تماما حيث قلبه ينبض، فعل كل ما طلبته منه ثم أعاد لي الورقات، قمت بخلطها جيدا مع السبعة وثلاثين ورقة الباقية و وضعتها أمامه في ثلاثة أجزاء مقسمة عشوائيا، حاولت أن أجعلها متساوية ولا أغلب جزءا من حياته على الآخر فالحياة العملية و العاطفية و المستقر كلها تشكل دعامات أساسية بالنسبة لنا.. تتفرق بينها حياتنا الروحية التي غالبا ما تغيب كقطعة سكر في فنجان القهوة الذي أمامه. كان يتتبع أوامري أو طلباتي كطفل مطيع سيحصل على جائزة فور انتهاء مهمته لتبدأ مهمتي... قمت بفتح الورق أمامه لم أكن لأنبس بكلمة، بل اكتفيت بضم ذراعي كتلميذة في المستوى الابتدائي ترغب في إثارة انتباه أستاذها لشدة انضباطها، كان ينتظر من شفتي أن تنبس بكلمات تشرح كل تلك الرموز المرتبة بدقة أمامي، نطقت لغة السماء رعدا وبرقا واشتد تساقط المطر فجأة ودون سابق إنذار، كنا نتوهم أن السكون سيعم فور طرق الليل بابه

بمغيب الشمس، كانت حبات المطر قوية تكاد تعبر زجاج النافذة على جانبي الأيسر، هناك فقط نطقت،-لقد قمت بدور قمر، و الباقي هو دور ابتهال بدأ ينظر إلي فاغرا فاه، ولم يكن ليستوعب أن قمر كانت أداة لتسيير قدر شخوصي فقط، وهو صدق وخلط بين السارد والكاتب، كانت قمر تسرد قصتها وابتهال مرة تساويها ومرة تختفي ومرة تكون الأقوى.. فأنا لست بقمر، قمر تعيش في بلد يدعى "ورق" أما أنا فهنا بجانبه أو بالأحرى أمامه. لم يكن ليقوم بردة فعل عنيفة كوني خيبت ظنه، بل قام من مقعده المقابل لي، ليأخذ مكانه في المقعد الذي قربي، أمسك يدي، وضعها بين كفيه، آه من دفء كفيه، ومن نبرة صوته التي كسرت كل حواجز الموج التي تتعثر على إيقاعها الصاخب رياح الليل. نظر إلى عيني، ليفصح أنه كان ينتظر مني أن أكشف ما يحمله قلبه من حب لي ليس على الورق ولكن في عمق نظراته، الواقع أني استطعت أن أفعل لكن كنت أكذب نفسي، وكنت أقول قد يقع في عشق المرأة التي متى ما فتحت الورق لشخص ووجدته سيئا قامت بقتله قبل أن يقوم من مقعده لتخلص الكون من خطاياه. كان مستعدا للموت بيدي إن كان قلبه سيئا وأن يعيش قربي في أمان إن كان قلبه نقيا. والحقيقة أن كل من زاروا كوخ قمر كانوا يموتون بفعل سحرها، لأنه لا أحد منا يخلوا من قوتين متدافعين

بداخله، قوى الخير وقوى الشر، قمر عندما فتحت الورق لنفسها لم تقم بعد من مقعدها. كان بداخلها جزء من الشر يذوب ويذوب ولن ينتهي إلا إن انتهت. تلك حكمة الله فينا، نصارع الشر بالخير أو الخير بالشر حتى نموت ويكون جانب هو الأقوى على الآخر حسب طباعنا وحسب المكان الذي أخذت منه التربة التي خلقنا منها. نحن أبناء الأرض الذين نشبهها في تنوعها. كنت أحب قمر وتمنيت لو أني قوية مثلها، حاولت أن أخلص يدي من قبضة كفيه الدافئتين، لكني خجلت وأنا أرى اللهفة في عينيه تخاطبني، عند ذلك طلبت منه أن يسمح لي بكشف الورق مزاحا معه. لم أكن أمزح لكن كنت فعلا أشعر برغبة ملحة لمساعدته على التحدث، كنت قادرة على فعل ما تفعله قمر بذكائها، عدا عن قتل أناس أشرار قد يقفوا أمامي، ذلك أني لم أكن أحمل بداخلي نفس نسبة الخير والشر الذين بداخلها.

جلس وهو ينتظر تهربي من اعترافاته، كان ذكيا، وكان مراوغا، كنت أرى الورق مصفوفا بإحكام وبتناغم تام على الطاولة، حاولت أن أقرأ كل ورقة على حدا وأجعلها أشبه بمقطع شعري منسجم وله معنى، كنت أرى بشكل واضح وجلي طريقا طويلا أسفل الرمز الذي يمثله هو، الورقة الثانية عشرة رمز الرجل صاحب السيف، الذي يمثل الرجل الأسمر

الطويل، يظهر أنه صاحب نفوذ، وأمامه طريق طويل لا يؤدي لشيء، كان العدم يفزعني، وكنت أرى اللاشيء يساوي اللاشيء، جمعت الورق لأتفادى الأشياء التي بدأت أراها جلية أمامي. ثم فرقته من جديد، طلبت أن يمرر يده عليه، قبل أن أشرع في ترتيبه من جديد على الطاولة، ذلك الغموض الذي كنت أخشى منه بدأ الآن يظهر جليا أمامي. حاولت ألا أتتبع نفس المسار على الورق، كان جزء من حياته قد مضى سعيدا والجزء الباقي لم يكن إلا لامرأة تقف بجانبه، امرأة لم تره بعد، بدأت أخبره عن الحب، وبأنه سيعيش حياة سعيدة، أخبرته أنه قريبا سيغادر عالم السياسة بحثا عن سعادته، أخبرته بأنه سيتلقى خبرا سعيدا سيغير الكثير بداخله. لكن العدم كان يلح بنفسه عليه. كان يرغب بالمزيد، وكان يرغب بأن يرى إن كان سينعم بحياة زوجية سعيدة، أو سيكون له أبناء من المرأة التي يحب، كان يسألني عن كل تلك الأشياء، والحقيقة أني لم أكن لا أنا ولا غيري قادرين على كشف حجب الغيب، كنا نرى ما كان الله يسمح لنا برؤيته فقط، كان الورق يعكس مدار ما قضي لهم في السماء وما عاد غيبا.

الورق يشبه قرص شمس ينعكس بقوة على مرآة كبيرة تعمي الناظرين قلة من هم قادرون على النظر في خسوف الشمس دون أن يؤذيهم...رأيت شيئا من الشر يحيط به ولم

أستطع أن أدرك إن كانت هذه الشحنة السالبة منبثقة من دواخله أم من دواخل غيره! نصحته أن يترك السياسة ويعيش لنفسه، لكوني أدركت أهمية الوقت الذي يحتاجه ليكون. اكتفيت بما قلت وجمعت الورق ثم وضعته في منديل وردي ثم في الحقيبة...محاولة إعلان رحيلي.

تفرس في جيدا وكان يهتم بكل حركة أقوم بها، ولم يتوان لحظة في تأكيد كوني قمر. وهو يردد:

-ساحرة صغيرة، مثقفة، وروائية.

-لست ساحرة، ولا مثقفة ولا شيء، أنا امرأة تتبع حدسها فقط.

كان يتساءل عن كيف كنت أقدر على فعل ذلك، فكثيرة هي الأشياء التي صادف كشفي لها على الورق أنها حقيقية. وكان يكذبني كونه لا يؤمن بالأشياء التي قلتها، والحقيقة أنه كان يريحني عدم تصديقه، فهمت فيما بعد أن كل ذلك كان حجة ليستدرجني لهذا المكان الذي حجزه لنا فقط ليعترف لي باهتمامه الشديد بي. في ذلك الوقت كنت قد خرجت من علاقة حب فاشلة، صعب علي جدا أن أشفى منها لأفكر في رجل وسيم مثير مثله، يضمن لي قربه أشياء ربما لم أجدها في غيره. هذا الرجل لا يعرف شيئا عني ويريدني، نظرت إليه ثم غضضت الطرف عما رغبت بقوله، لكن إسراره على أن أكون

صريحة معه جعلني أفقد كل الأبعاد التي يفرضها قانون المجتمع علي لأجعله يفهم أني لست الصالحة للحب، ولا للزواج، كان يتحدث ولم يكن الرجل الذي يخضع نفسه للممنوع، تماما مثلي، كان قادرا على الهرب من الكل ليفعل ما يريده. وأمام صدقه لم أجد من بد لألتزم الصمت، أي نعم ذلك كان أول لقاء لي به، كثيرا ما التقى بي ليلا على مدينة "ورق"، ولعله جلس يوما أمام قمر ونفذ إلى قلبه سحرها ومات، لأنها لو وجدته خيرا لاتحدت مع ملائكة قلبه لتخلص الكون من الشر. نحن البشر العاديون دوما نقع في الوسط. كيف لي أن أكون جريئة مثلها، كيف لي أن أخبره؟ جرأتي تقف في حدود الورق، لا أبعد من ذلك.

-نظام أنا امرأة متطرفة، وأنت رجل سياسة لا يمكن أن نلتق.

ابتسم، وبدأت الشخصية الديبلوماسية تظهر في كل حركة مدروسة يقوم بها وهو يجدد بناء المسافات عندما عاد لمقعده الأول أمامي، قصد المواجهة و فرض إخراج بواطني الصامتة التي لم اسمح لأحد بالكشف عنها، لكن في تلك اللحظة والموج بدأ يهدأ والسحب بدأت تنجلي عن وجه للقمر جميل، أمسكت بدوري كوب الشاي الذي فقد دفئه عوض مسك يديه، كنت في تلك اللحظة أجوب دواخل نفسي، و أتخيلني في

غرفة صغيرة تعود لكنيسة عتيقة في تلك الزاوية بعد أن أشعلت الشمع وقلت كل الأمنيات، قررت أن أعترف لرجل دين يدعونه الأب، في تلك الغرفة الضيقة، كان من الصعب عليه أن يعرف ديانتي، ولا انتمائي.. تماما كهذا الرجل الذي يجلس في المكان المقابل لي. فكرت في شيئين اثنين، إما أني لن ألتقيه مجددا بعد هذا الاعتراف أو أني سأكون المرأة التي تقف بجانبه إلى المدى اللامحدود في الورق. أنا فتاة فقدت أبويها في سن مبكرة جدا، يمكنك أن تعتبرني لقيطة، ولكن يمكن لعمة تقطن في الريف أن تثبت أن لي نسبا، كنت بليدة جدا ولم أفلح في متابعة تحقيق تفوق دراسي يضمن لي فيما بعد لقمة عيش محترمة، لكن وأنا أكبر اكتشفت أني محقة فكل تلك المقررات الدراسية تجعل الفرد بليدا، ومعتوها ومشوها من الداخل تعلمنا أن نأسى على ما مضى، تشلنا وتسمح لنفسها بأن تقسم مراحل حياتنا لمراحل قط لم أعترف بها. يبدأ وعينا الداخلي بسن مبكرة يعتبرونها حسب منظوماتهم مرحلة طفولة ومراهقة. أنا لا أعترف بكل هذا، اجتهدت وتعلمت وحدي، كنت عصامية بكل المقاييس ولم أومن بوجود أدوار خاصة بالرجل والمرأة بل آمنت بأدوار متداخلة يحققانها معا. قاطعني وقاطع حماسي، وكان يحسب أني أخاطبه كرجل سياسة ومواطنة عادية لها مطالبها، لم أسمح له بأن ينظم الحوار

حسب رغبته بل بسلطة اللغة استحوذت على كل الفضاء الشاغر لأملأه بخطبتي و ببوحي كل ما أراد أن يضيفه، أني محقة وهذا كله لن يعوق أن نكون معا.. لكن القادم كان أقوى، فأنا فتاة فاقت حدود الحرية، فتاة متعددة العلاقات لم أكن متزنة في واحدة منها ولا أستطيع الاتزان، لم يبدأ الأمر بمحض الصدفة، فقد كنت فتاة وحيدة ضائعة تبحث عن نفسها وكنت أحسب أن نفسي بين كفي رجل ستكون في مأمن بعيدا عن مخالب الوحدة، الكثير ممن تعرفت عليهم كانوا يحجزون المرأة في رغباتهم، لكننا أكبر من أن نحتجز، فكرت في أن أتزوج بسن مبكرة، لعل الرجل يكون قادرا على سد كل الفراغات التي تركها غياب الأبوين و الإخوة، كان زوجي السابق أيضا رجل سياسة، همه كان محجوزا في كيف سينهب خزينة البلاد، كنت أستغرب كيف له أن يقتني قصرا لو بقي هو وجد جده يدخرون المال ليبنوه لما كفوه أجره.. كنت دوما أطرح السؤال والتساؤل العميقين عن كيف لضميره أن ينام في الوقت الذي كنت أصحوا ولا أقوى على مجابهة ضميري، كيف لي أن أكون زوجة لرجل لص، لم يسرق واحدا بل بلدا بكل مواطنيها. لا أنكر كنت في البداية مثارة بكل مظاهر البذخ في حياته، كان يوقظني باكرا لنبدأ يومنا ونستمتع به، رحلات و اكتشافات، ملابس و مجوهرات، سيارات وقصر يجعلني أستشعر أني

ساندريلا زماني، عوضني في بداية زواجنا عن كل ذلك الضياع الذي مس حياتي السابقة، حتى بدأ ضميري يستيقظ عندما سمعت خلسة ذلك الحوار الذي درا بين البستاني و الطاهي، وهما يتحدثان عن زوجي الطاهر النقي، بدأت أتغير كثيرا، وضميري يستفيق ويصحو مع كل ملكية جديدة، كنت ألوم جهلي كثيرا، ووعدت نفسي بأن أجعلها تتعلم وتدرس لتفهم وتدرك الوجه الحقيقي لكل الأشياء التي تلمع وكأنها ذهب، وعدت نفسي أن أجد طريقة أسترجع بها حقوق الناس ولو كلفني الأمر خسارة هذا الكهف الذي لا يمتلكه إلا علي بابا، من يمتلك كلمة السر، كلمة النفاق والخداع، ليته كان علي بابا ورد الحقوق لأهلها، لذلك كرهت السياسة والسياسيين بدأت أتغير تركت دلال الأميرات ولبست جبة المناضلات، بدأت أضع أمام وجهه كل ليلة المرآة، وكنت أطلب أن يعتبرها ضميره الذي يعرف عنه كل شيء لكنه في سبات عميق، طلبت أن يحاول إيقاظه، لكنه نائم نوم روح تمتلك بداخلها ملاكا وشيطانا، شيطانا بشعا مريعا، أصبح منذ ذلك اليوم يمارس علي سلطته الذكورية البرجوازية، وكنت أمارس عليه فعل النساء المتمردات.. وفي لحظة ما هدأت روحي، بدأت بالانكباب على المطالعة والتعلم، وكنت أشبه بروبنهود، أقيم العدل في مملكة فقراء مثلي.

عدت من جديد لحضنه، أمارس الحب بكل برود، وأنهب من مال الشعب لأعيده لهم، وكنت أعتكف على التعلم والدراسة، في تلك الغضون اكتشفت كم مساعدة الناس تقربنا من الحياة، غير أن ذلك كله بدأ يوجعني ويجعلني أحتسي من السؤال الشيء الكثير، لماذا؟ لن أطرح عليكم تساؤلاتي الآن سأتركها لاحقا. هكذا وأنا أبحث وأكتشف وجدت أني قادرة عن خط أشياء كثيرة وجميلة، وربما هي قادرة على تغيير وتطهير دواخلي، بدأت محاولاتي الأولى بقصاصات نثرية وشعرية، لم أحاول البتة أن أعرضها على متخصص بل اكتفيت بفتح حساب فيسبوكي، بدأت أنشر كل تلك الأشياء التي أكتبها. تفاجأت بعد ثلاثة أسابيع من نشر القصاصات من نسب الإعجاب والتفاعل بالتعاليق والرسائل على الخاص من تحقيق صدى مهم، زاد من حزمي، ورفع من همتي. لدي شيء مهم في هذه الحياة، اللغة وسطوتها هكذا بدأت ككاتبة!

انشغالي عن زوجي جعلني رغم سوئه أشتاق له وأحبه، لو لم يكن لصا لما وجدت في روبنهود ولا علي بابا، ولا الكاتبة، فبدأت أدون لزوجي رسائل في أسفاره وغيابه، إلكترونية وورقية، رسائل محرق حبها، وكان على الرسائل صدقا يحبني، وتعاهدنا على أن نكتب لبعضنا، ولم أنهه خلالها عن العدول عن فعل نهب الخزينة، فقد كنت أنفق ما أشاء على من أشاء ولم يكن له أن يعارض ما دمت دوما أظهر بالمستوى المطلوب، رفعت شهرتي من شعبيته، بدأ الناس يحبونه لأجلي، ويدعون له لأجلي، ولم يكونوا ليفصلوا بيننا، من اقتربوا منا معا فقط فعلوا...

تعلمت بسرعة فائقة، واقتربت من أشيائه الخاصة، فوجدت الباب الذي فتحت يرتد علي لهيبا من نار محرقة لافحة، إيه كم عدد النسوة اللواتي يعرفهن، كم عدد عشيقاته، كم هو كاذب ومخادع ومجرم قلوب وسفاح جنس، لم أكن الوحيدة في حياته كنت الزوجة بعقد شرعي يشهد على نفاقه وعلى خداعه، كيف يمكن لورقة أن تكون وثيقة ثبوت زوجية، أليس الزواج بأعمق من طلب وقبول ومهر وتوقيع؟ لم أعد أدري، صدقا أنا ضائعة وكم من سؤال ذلك الذي يطرح نفسه علي، ولا مجيب كيف كان له أن يتفاعل حبا في رسائلنا

وعلى فراشنا وعلى مدار السنوات التي عشناها معا، نضجت فيها فعلا. بدأت أعيد تمرين المرآة أمامه، وكان يعدني أن تكون كل خيانة هي الأخيرة، فهمت حينها لم اختارني فتاة ليست بالمتعلمة! لماذا قرر أن يدخلني قصره ويأتمنني على أسراره! غير أني كنت المارد الذي حجزه في القمقم وثار يوم نال حريته، أصبح يعنفني أكثر وأصبح لا يتقبل ثورتي، وكان يعدني وعد حر أنه سيقتلني ويرمي بلحمي قطعا مقطعة باحتراف لكلاب حديقة قصره، تلك الكلاب التي لطالما أطعمتها بيدي، وربت بيدي على ظهرها، هل يمكن أن تكون غادرة وخائنة. أصبحت علاقتنا تسوء، وفي لحظة ما حاولت أن أصلح كل شيء، انتظرته على العشاء كما كنت أفعل قديما، لحسن الحظ أنه لم يختر المبيت في مكان ما ويعتذر بحجة سفر طارئ، تحدثنا عن كل الأشياء التي تسوؤنا، تحدثنا عن كيف يمكن لنا أن نصلح علاقتنا، تحدثنا وبدأ صوتنا يرتفع، وكان لزاما على الخدم التظاهر بالنوم، سحبني لغرفة النوم، وانهال علي ضربا وركلا، كما فعل ذات يوم رجاله مع أصحاب حق جاءوه أمام عتبة قصره الذي أصبح يحتجزني فيه. بدأت استغل الدم الذي ينزف من أنفي وجبيني، وفمي لأعبئ أقلامي وأدون على الورق مواجع النساء، ومواجع الوطن، حتى وجدتني أنهي في ظرف عشرين يوما رواية مكثفة، تواصلت عبر الفيسبوك بدار

نشـر، وقـدمتها لهـا، بعـد أن قـرأت الإعـلان الـذي وضـعته على صـفحتها ثـم تقاسـمه معي المتتبعـون، إعـلان يخـص من يرغـب بنشـر عمل إبداعي تشـترط إبداعيته وجودته، ليخرج للوجود، كان الأمر بالنسـبة لي ضربا من المسـتحيل، كل ما دونته، كنـت أحـاول بـه أن أخـرج مـن سـجني الـداخلي والخـارجي معـا، كنـت بحاجـة لأن ارتـاح، فقـط. لـم تكـن مطـالبي كثيـرة البتـة، كنـت أحتـاج لاسـترجاع إنسـانيتي التـي حطمهـا هـذا الرجـل المـاكر. خرجـت مـن حسـابي و بـدأت أنتظـر أن يـأتيني الفطـور لأجـد سبيلا للخروج، فقد أعياني سجني وأرهقت من تنكره لي، قررت ألا كلمه في شيء، قررت أن أعيش لوحدي في قصره ريثما أجد عملا لأسـتقل بنفسـي، والصـدق أقـول كنـت أحس أني أعـيش بكرامة لأن جزءا يسيرا من ميزانية هذا القصر هي الحق الذي أستحقه بموجب العدالة السماوية، هكذا استطعت أن أحقق توازنا داخليا، لأعيش بعض الوقت بسلام، استطعت أن أخرج أخيـرا، ارتـديت ملابـس بسـيطة، لا تعكـس أنـي زوجـة وزيـر، وخرجـت أجـوب الأرض مشـيا، اشـتقت للسـماء الصـافية، وللشمس الساطعة، اشتقت للون الورود الحرة الطليقة بعيدا عـن ذلـك القصـر الـذي يماثـل سـجنا مـذهبا، هـل يحلـو للمسجون فاقد الحرية أن تكون قضبان سجنه من ذهب؟

في طريقي صادفت رجلا يقارب عمره الستين، مظهره يشي أنه من رجال الله "بوهالي" كل كلامه حكمة، لا ينظر كثيرا للبشر، لا يعبأ بشيء أو لشيء عيونه منشغلة بالسماء وزرقتها وصفائها، يرتدي جلبابا أبيض يحمل في يده اليمنى سبحة، وفي يده اليسرى عصا طويلة، ما إن اقتربت منه حتى أدركت أنه كفيف، حاولت أن أفهم تلك الأشياء الكثيرة التي يرددها، فهمت البعض منها، وبقيت واقفة كالصماء أمام الكثير منها:

-يا الظالم رد بالك راني عصا تابعة غنمك،

راني إبرة تابعة الشرك في توبك

...

ارتعدت فرائسي تراني أساهم في ظلم الناس؟ قررت أن أتبع الرجل، قلت في نفسي أنه كفيف لا يبصر ولن يراني، فإذا به ينتظرني في نهاية الطريق، لم يتوقف عن الكلام، بل وضع يده على كتفي، وكأني مرشدته، لم أكن أدري إلى أي مكان يمكنني أن أقوده، بكل بساطة كان هو يقودني، وبدأ يتحدث مكاني، تسارعت خفقات قلبي وهو يحدثني ويتلفظ باسمي، كيف عرف اسمي "ابتهال"، وكيف عرف أن لي من الهم ما يهد الجبال ليترك ابتهال بعد أن باح بكل أوجاعها ونصحني أن أطالب بوثيقة حريتي و كان يقصد "الطلاق"، كيف لم أفكر قط في الطلاق، ما دمت زوجته فأنا أشاركه في كل جرائمه، بسطت

للساني القول، لكن الرجل كان أفقه من أن أبوح له بتفاصيل تملأ أهمية الصمت بالنسبة إليه، كان هناك كون حولنا يجيد الاستماع إليه، حاولت أن أكون مثله عندما جلسنا في غابة الفلين.. بحجب النور عن عيوني، واستدعاء كل حواسي كما الرجل، استلقيت على ظهري، شعرت باسترخاء تام، وأنا لا أراني إلا من الداخل، كنت أذوب مع كل الدبدبات التي ترددها الأرض والشجر والطير، شعرت أني عصفور يطير وهو مدرك جيدا لغايته، لا شيء يحول بينه وبينه الحياة. لا أدري كيف غفوت، ورأيتني طفلة تسبح في النهر وتقول "يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر" جرفني النهر وألقى بي في البحر، وضعت.

استفقت بعدها، ورحت أبحث عن الرجل ولم أجده، هل كان جزءا من الحلم، لكنه الذي قادني لغابة الفلين، أردت أن أناديه لكني لم أعلم له اسما، دعوت له، وكان من بين دعواتي أن ألتقي به من جديد إن لم يكن حلما...

بدأت فكرة الطلاق من جديد تطرق بنفسها على بابي، لكن كيف سأتدبر أموري؟ لم يكن ذلك السؤال الأهم، فالأهم أن أجرؤ على طلب حريتي. عدت أدراجي للبيت، بعد غياب دام لساعات طويلات، لم أشعر بالزمن، وكم هو غريب هذا الزمن، كيف يكون النهار هو نفسه، وأحيانا نشعر به سرمديا لا ينتهي، وآخر نشعر به كنسيم الفجر.

وجدت زوجي العزيز في الانتظار، أول مرة أغيب فيها عن البيت دون إذن، ودون سابق إنذار كان يخشى من هروبي، ومن أن أصبح فضيحة وزارية لجنابه، من جديد يبحث عن سبب ليعنفني بعد أن ساقني لغرفتنا الخاصة وأغلق الباب. انهال علي ضربا، مزق ملابسي، ورأت عيونه كم أنا شهية، تحول فجأة لرجل طيب، لطفل يحتاجني ليهدئ روعه، لرجل لم يمارس الحب منذ زمن كيف و سكرتيراته لا ينتهي عددهن، كيف وخليلاته الله وحده يعلم بعدهن. جردني من ملابسي تمزيقا، وراح يبصم في كل مكان قبلة، أحسست في تلك اللحظة أني أنثى وأحتاجه، كان قلبي يبغضه، لكنه أحبه في لحظة ضعفه، لا زلت ساذجة في الحب! ربما لأني لأزيد من شهر لم أمارس حقي الطبيعي، لكن وأنا أرغب تركني. أتقلب حاجة وشوقا ورغبة، توسلته أن ننهي الأمر، ولكنه كان يرغب بتعذيبي بطريقة جديدة، ليعلمني درسا مفاده "ألا حياة لي دونه ". اتجهت للحمام ولا أدري لي في هذا الكون من اتجاه، تركت جسدي يسبح في بركة من الوجع، كان الماء يتقاطر على رأسي فقدت الإحساس بأنوثتي وبأني امرأة تجعل رجلا يقبل قدمي. تماما كما كان يفعل، لكنه ما عاد سرعان ما رجع بي تفكيري للحكيم الذي التقيت به، بدأت جديا أفكر في الطلاق، ماذا قد

يبقيني مع رجل مثله الحب، الجنس، المال، الطيبة، الدفء، الأسرة، لا شيء.

بدأت تمضي الأيام على ما هي عليه، إلى أن جاء زائر يزور بيتنا، صحفي يرغب باستجوابي، سألت لم، إن كان الأمر متعلقا بزوجي فحتى يعود، لكن الأمر كان متعلقا بابتهال الكاتبة. ما أدراه أني كاتبة؟ رحبت به، وطلبت دقيقة، خلالها عدت لتصفح بريدي الفيسبوكي، وردت آلاف الرسائل من الناشر الذي راسلته، ومن المتتبعين الفيسبوكيين، ومن صحفيين يطلبون لقاءات، كله في شهر ونصف إن كنت أحسن العد، ما الذي جعل الناشر يطبع عملي بدون إجراء عقد؟ توخيت تلك الطريقة في النشر ليتم الأمر بمصداقية لا لكوني زوجة وزير، ابتغيت النشر مع دار أجنبية كي لا يتم التوصل إلي لكن ماذا يفعل الصحفي هنا؟ ... إنها رواية "ثمار الصنوبر" لم أكن أعلم أن ثمارها قد تشعل النيران بغاباتي. أعجبت رغم هول المفاجأة بغلاف روايتي، طفلتي الأولى، تمنيت لو أضمها لي. عدت للصحفي، استقبلته بحفاوة، هو أول من زف لي الخبر، لم أكن أنوي العودة للفيسبوك ولا التواصل من جديد، غير أنه دلني على الطريق للعودة لنقطة الحرف نقطة بداية الكون، طلب مني أن أجيب على مجموعة من الأسئلة، وكنت أجيب ببساطة متخلية عن دبلوماسية زوجات الوزراء، نسيت أصلا

أني أشغل تلك المكانة، كنت أتصرف كما يجدر بابتهال أن تفعل، بعد أيام وجدت صورتي في الجريدة "زوجة الوزير تكشف فضائحه في رواية" سأل زوجي:

-هل هذه أنت؟

بدوت نجمة متميزة في الصورة، لكن لم أقصد قط أن أفضح زوجي، كنت أكتب، وعوض أن أخفي اعترافاتي رحت أخبئها في بريد الناشر لكنه آمن بها وصدقها، هل الصدق الذي فيها ما جعل زوجي موضع اتهام، وجعلني موضع الشكوك، لم أقصد قط أن أتهمه، وقد صرحت للصحفيين أن ما أدونه تخييل ولهم أن يؤولوه كيف شاءوا. خسرت زواجي بعد أن شكلت روايتي محط اهتمام أعدائه، الله شاهد أني لم أنوي أبدا تدميره، ولا تدمير زواجي بهذا الشكل، لكن كما قال لي الرجل الحكيم لو أنه كان نزيها وأمينا لما أثبتت عليه تهمة. استقال من منصبه وهاجر الوطن، لا أدري ما حل به، لن يكون أفضل من اللصوص الذين يخبئون ثروات الوطن في بنوك أجنبية.

3

بدأت أعيش من عائدات كتبي، اكتفيت باستئجار غرفة في فندق متواضع، ورحت أقسم حياتي بين الكتابة والسفر. تعرفت ذات صباح وأنا على مثن قطار متجه نحو مدينة مكناس برجل أمريكي، جلس إلى جواري، وراح يسألني عن أهم المعالم التي تميز مدينة مكناس، ورحت أجيبه بإنجليزيتي الركيكة، وراح يسألني تبسيط عربيتي لنكون قادرين على التواصل، تهت في عينيه، وفي حريته، بدأ كلانا يقدم بطاقة تعريفية عن السعادة والحرية، ووصلت معه لحقيقة أنهما وجهين لعملة واحدة. وصلنا أخيرا وتمنيا في سرنا لو أن المدينة لا تزال أبعد مما هي عليه، غادر القطار قبلي، دون توديعي، لم أكن مهمة لدرجة الاكتراث بتوديعي، فأنا رفيقة طريق فقط. وقد تفهمت موقفه، غير أن عيوني اتسعت وأنا أجده أمامي ينتظرني، ورحت أغض الطرف عنه، ربما له غاية لا أعلمها، غير أني وجدته يخطو نفس خطواتي، تذكرت الرجل الحكيم، أغمضت عيني ورحت أتبعه ومشينا سوية، وكأننا نعرف بعضنا لا حضارات تفرقنا ولا لغة تحول بيننا، لا سياسة ولا اقتصاد ولا إعلام. إنسانيتنا فوق كل شيء، طرت كالطير الحر الذي كنت في جعبته أتجول الأكوان، لنرسو معا في مقهى بساحة

الهديم، جلس إلى جواري مشدودا لسحر الحضارة، وراحت المسافات تفرض نفسها علينا، راح يسألني عن الرجال الذين يروضون الأفاعي، وعن مربي القردة، وعن الشاي في بلدي، وعن لون "النقانق" التي تسارعنا معا لأكلها وهي ساخنة تكسر الصمت الداخلي الذي يفرض نفسه علي في صورة ذكرياتي. انتهى النهار، وكان على كل واحد منا أن يعود أدراجه، دعاني للبيت الذي يستأجره في مدينة فاس، وها أنذا أبدأ طريق تمردي بلونه الآخر.

مضيت مع رافاييل باتجاه مدينته، كانت تلك ليلته الأخيرة وكان يرغب بأن أكون إلى جانبه، لا أدري لم أنا نفسي رغبت بذلك، جلست بجانبه مرة أخرى، ورحنا نأكل حبات الذرى، وهو يغني لي أغنية لطالما أحببتها If tomorrow never com ، ماذا لو أن الغد لا يأتي...

لا أدري ما الحوار الذي كان يدور بداخله، وأنا أدخل معه منزله، فقد لزم الصمت، وهو يقول لي بإنجليزية سريعة:

-serve yourself

وهي عبارة يقولها الإنجليزيون لضيوفهم، ليخدموا أنفسهم بأنفسهم دون الحاجة لصاحب البيت، أحسست بأنه يرفع الكلفة بيننا، وهذا أمر أراحني، لكن مطرقة التساؤل راحت تفرض بنفسها علي، لم قبلت القدوم معه؟ لم ضربت عرض

الحائط كل الاعتبارات، وما أختزله من عادات وتقاليد وعيب وحرام. أصلا لم أفكر يوما فيها كلها، كان رافاييل يستحم في الوقت الذي قمت بتشغيل الموسيقى، حاولت اختبار سيجارة من سجائره الموضوعة على طاولة الصالة، غير أن دخانها خنقني، اشتد الزكام علي، رعد زكامي جلب برقه الخاطف إلي، جاءني وهو يحيط خاصرته بمنشفة بيضاء وعلى رأسه رغوة الصابون، وعيونه لا يكاد يبصر بها، راح الزكام عني وعوضه الضحك، ذهبت إليه ورحت أعبث بشعره الممزوج برغوة الصابون، والفقاعات، ولأني أفزعته كان عقابي أن يحملني بين ذراعيه للحمام ويجعلني أغرق في الحمام وسط الرغوة، لا أنكر في تلك اللحظة توقف الزمن، و بعث في أملا جميلا، متجددا للحياة، نسيت أني عدوة نفسي، ونسيت كل القهر الذي عشته، بدأ حينها جسدي يشفى من حروقه و من أوجاعه وآلامه، بدأت أستعيد ابتهال بين يدي رافاييل... بدأنا نلعب بالماء و الصابون، و نغني من جديد ماذا لو أن الغد لن يأتي.. وكان مدركا لاختياره، انتهى الاستحمام، أعارني ملابسه، أعد لنا القهوة، ليشغل غرفة نومه لوقت يسير شعرت بالوحدة أمام التلفاز وأنا أنتظره، لحقت به، وكرهت الحقائب التي كان يرتبها، كرهت سفره، وتلك الحياة التي تنتظره هناك من جديد، سيكون هذا اليوم مجرد مغامرة بالنسبة إليه، لكن

بالنسبة إلي...جلست على سريره، وبقيت مشدودة إليه وهو يرتب أغراضه، انتبه إلي بادلني بابتسامة، ثم باعتراف:

-عيناك جميلتان،

ثم صمت، أخيرا انتهى، وجلس بجواري، في لحظة ما راح يقترب مني، ويقترب وأقترب، أغلقت النور.

-سأعود قريبا من أجلك.

يمكنني أن أعتبر تلك ليلة خطيئتي الأولى، رحل رافاييل، استمرت رسائلنا لمدة شهرين، بقي عطره عالقا بخياشيمي، بعد أن انقطعت المراسلة بيننا، قال لا يمكنه أن يستمر مع شبح. لم أكن أنتظر منه أن يكون وفيا ولا متزنا فعلت ما كنت قد رغبت به تلك الليلة. فقط.

4

بعد رافاييل تعرفت على وحدتي أكثر، عشت وقتا من الوجع والوحدة، كنت أستيقظ في منتصف الليل وأبكي بشدة، ولم أكن أعلم ما السبب؟ كل شيء من حولي كان يخنقني، فقدت الكثير من الأشياء التي كنت أرغب فعلا بها، لم أحقق شيئا، ولم أجد بعد نفسي، أصبحت ظروفي أشد تعقيدا مما كانت عليه، لا أقصد المادية طبعا، ولكن النفسية، فكرت في استشارة نفسية، لكني عذلت، وفكرت في السفر من جديد، كانت وجهتي مدينة البيضاء، لم يكن سفري بمحض الصدفة فقد كان بدعوة من ناشري، سأوقع في معرض الكتاب روايتي "ثمرة الصنوبر" ذلك المعرض السنوي الذي يستضيف العديد من الناشرين ليكون الكتاب والكاتب أقرب للقراء، و ها أنا ذا أستعد للتوقيع، أستقبل العديد من باقات الورود، ومن كلمات الحب والإعجاب، لاقت روايتي الأولى نجاحا غير متوقعة البتة.. أسعدتني في تلك اللحظات لكنها سرعان ما تلاشت، كنت مستعجلة في دواخلي لينفلت بي الزمن بعيدا عن هذا الضغط الذي يخنقني، لا أحب الجدران، ولا أحب أن أتظاهر بالسعادة وأنا أختنق، هرولت بعيدا ما إن سنحت لي الفرصة بذلك، تخلصت من هاتفي لأخلو بنفسي، وها أندا

أشتم البحر كم هو هائج غاضب في شهر فبراير شهر الحب الذي يجدني كلما حل موعده وحيدة أجتر الوجع الذي لا أدري له مصدرا ما أدريه أنه ممتد. في طريقي طلب مني فتى أن ألتقط له صورة، لم أهتم لشكله، غير أنه بدا مختلفا وعين الكاميرا تعكسه، له شعر طويل تعلوه ضفائر لا أدري كم من الزمن احتاجه ليربيها، ارتابني شيء من الشك عن كونها مستعارة، جعلته يبدو كأيل ذي قرون ربيعية، فارع الطول، بشرته فاتحه، له عين خضراء والأخرى بنية، كل كلامه باللغة الفرنسية، وإن كان أقرب للإسبانيين في ملامحه لكن فرنسيته التي أكره كلغة في الأصل خالفت ظنوني، أعدت له الكاميرا، لكنه طلب مني صورة برفقته، تكون "سيلفي" استغربت الطلب، لكن دارجته المغربية فاجأتني، وهو يبوح بإعجابه بلون عيوني التي تماثل لون الفسيفساء، ومن الصعب معرفة لونها، رحت أنظر إليه، و قلت لابأس..

كان الفراغ القاتل بداخلي يشلني وكنت بحاجة لمن ينتشلني منه سمحت له بثلاثة صور، ثم غادرت لأجلس على صخور البحر الكبيرة، استمتع بصوت جزره ومده و هو يحدث سيمفونية دافئة بين الحصى و الموج و ها هو يجلس دون إذن مني، يكسر عزلتي و يغير عزف كمان البحر بداخلي، بدأ يتحدث ويتحدث و يتحدث، أخرج من حقيبته دفترا مزينا

بجذع الشجر و الورود المجففة، وكأنه يحمل رزمة من ورق ما عاد مستعملا اليوم، هو الرق، و ما بداخله صوره و فتاة شقراء فاتنة، يقول أنها حبيبته، أو بالأحرى كانت حبيبته، التقى بها في كلية الهندسة بفرنسا، عندما هاجر لمتابعة دراسته، حبهما كان مثاليا، لكن حواجز عدة كانت تقف بينهما، كاثوليكية أبويها و إسلام أبويه.. أشفقت عليه، كونه لم يكن قادرا على تجاوز كل شيء ليكون مع حبيبته، لو كنت مكانه لضربت كل شيء عرض الحائط لأكون مع من أحببت أليست كل الديانات تقود لإله واحد و تهدف لنشر الحب والسلام، غير أنه ولد بار ولم يرد أن يعق والده الفلاح البسيط الذي أنفق عمره ليدرسه ويبعثه لطلب العلم في آخر الدنيا، فيأتيه بغربية تبيح لنفسها كل شيء، لكنها كانت محافظة مثلهم، أسفا كانت التلفاز كافية لتنقل للعالم حقائق غير صائبة عن مجتمعات أخرى...الاعلام فاسد أفسد الكثير عنا، انتهى بنا الحديث إلى ملهى ليلي، وها أندا أرقص بكل جنوني على موسيقى الليل الصاخبة، توقف كل شيء فجأة بدأت استعيد ذكرياتي، و وجدت أني فقدت الإحساس بكل الأبعاد من حولي، بل داخلي، وجدت أني فقدت طعم السعادة والحزن والخوف واللهفة والشوق والاشتياق، والحاجة الماسة للآخر فقدتها

كلها.. بدأ صوت ما يتجه إلي يكاد يقارب الهمس، إنه يغني من أجلي ومن أجل الحب:

-if i have a hummer
I will ring it in the morning
I will ring it in the evening
All over this land
I will ring it for freedom
For justice
All over this land

أحببت الكلمات وصوته يكسوها، وعزفه يحملها على أجنحة الطير،

لو عندي جرس
لقرعته في الصباح
في السماء
في كل الأرض
من أجل الحرية
من أجل العدالة
في كل الأرض

لعلها تغنى في الكنائس حيث تقرع الأجراس، كان القرع مماثلا بالنسبة لي مادام يدعو للمحبة والسلام، أكان قرع طبول في بلدان إفريقية، أو قرع أجراس في معبد بودي، أو كلمات مانترا في بلد هندي، أو آذان بلبل مكي يصدح بصوت السلام في غار حراء كل شيء بداخلي كان يتفاعل بحثا عني، وها أندا أتوقف عن الرقص، بقيت أنظر للفتى ذي العينين المختلفتين، بنية وخضراء، مختلفتين تماما لكنهما بالنهاية عينيه، بالنهاية يبصر بهما الكون، تذكرت الرجل الحكيم، كان كفيفا لكنه كان بصيرا، ينظر أبعد منا.

احتسيت الخمر لأول ليلة، فقدت كل الأبعاد وفي الصباح وجدتني في فراشه.

5

نظام فغر فاه وهو يسمع كل ما أقوله، كيف لي أن أكون هكذا. لم يكن ليراني من الداخل وهذا أمر أساء لي، فأنا أنا في أي مكان أعيش فيه، سواء في بلد محافظ أو بلد متحرر، ما أريده أفعله، وليس علي ارتداء الحجاب لأني في باكستان، وليس علي ارتداء التنورة لأني في ألمانيا. ليس علي أن أكون مدى الحياة لرجل واحد لأني في الهند وأموت حرقا بعده، وليس علي أن أكون لعدد متسلسل من الرجال في بلاد غربية تؤمن بأحقيتي في فعل ما أريد. وليس علي ممارسة السحر لأني مجوسية أو أن أشعل النار وأحوم حولها طوال الليل لكوني من قوم المايا، ولا السهر تحت سماء مليئة بالكواكب لأني أتبع ملة الآلهة فيها نجوم وليس علي أن وأن وأن وأن لأكون ما يريدونه، أنا أبحث عن نفسي فقط، وأومن أن إنسانيتي تسمح لي أن أفعل ما أشاء متى أردت حتى أجدني بين ركام المفقودين أو جنة الأحياء. تماما كما أفعل أمام الورق، أحسست في تلك اللحظة أني لم أكن أمام قس بل أمام رجل شرقي لا يستطيع تقبل اعترافاتي. بل ربما أمام قس يريد مني أن أبتاع صك الغفران لأزيد من رصيده و تغفر بذلك خطاياي، كان من الصعب عليه أن يستمع إلي بعمق، ويفهم غايتي، كل ما فعل عندما خطرت

فكرة ماكرة بذهنه، أن يستغل ما يسميه انحلال خلقيا، لينظر إلي نظرة الرجل إلى الأنثى، جسد جاهز لامرأة متمردة، هناك بدأت أكشفه وكان عكس الرجل على الورق، ربما كان رجلا غيره ذلك الذي وجدت فوق الطاولة، وربما أسأت فهم ما أراد الورق قوله حينها وجدت أن حصة الاعتراف يجب أن تنتهي، بدأت أسحب أغراضي بهدوء، انتشلت معطفي من على الكرسي المجاور لي لألبسه، هو الآخر كان على استعداد ليستجيب لرحيلي.. لست أدري إن كان كل شيء توقف هنا، أم لا يزال! لا أنكر أني أحسست أني أخطأت الظن به فكل ما قام به، هو أنه استجاب لرحيلي ولم يحاول قط استدراجي لغرف الفندق المتواجدة فوق المقهى الذي استضافنا في الدور الثاني لعل الفكرة الماكرة طرقت له في لحظة ما واستطعت أن ألمسها ولكوني لم أستجب استجاب هو لرحيلي. لم أرغب بمرافقته ليوصلني إلى مسكني، كنت أرغب بأن أتحدى الليل والموج والمطر الذي يستعد سحابه للعودة فأشق طريقي، ثم أعود وحيدة للفندق أحجز لي غرفة متواضعة ألبث فيها بضعة أيام، قبل سفري الموالي، غير أنه أصر على أخذي في جولة داخل المدينة ليلا، قال إن المدن تبدوا على حقيقتها ليلا عكس النساء، أحسست حينها مدى رزانته وكم بوده أن يفكر مليا ويرى حقيقتي في ليله الخاص وليس الليل الحقيقي الذي قال

عنه أننا لا نبدو فيه نحن النساء على حقيقتنا ربما لأننا فيه نتساوى.

-تعلمين.

كلما بدأ شخص بهذه الكلمة أفهم أن خبرا جديدا سيضاف لرصيدي عن الذي أرافقه، أو أنه شيء سبقت لي معرفته ولكن لابد من التذكير أو التأكيد. لم أكن فعلا أتوقع أنه سيرفع الستار عن جزء من حياته ليكشفه لي، لأدرك كم أنا مهمة! بدأ هذا الرجل الذي لا يحسب ماضيه ماضيا بل ذكريات يحدثني عن إمكانياته في استقطاب حسناوات من شتى بقاع العالم يدفع مقابل المدة التي ستكون معه، أسبوعا أو أسبوعين أو حتى شهرا. ويمكنه أن يستضيف على فراشه أكثر من حسناء واحدة وقد ينتظر إلى أن تخلص مدتها ليأتي بأخرى، ويصنع له جنته إن كانت الجنة تساوي عنده النساء، وقد سبق له أن فعل، ولكن الأمر بالنسبة له أصبح بغيضا عندما كان يفرغ من شهواته ويبقى مع نفسه. أحس حينها فقط كم من المهم أن يكون للرجل زوجته، امرأة واحدة تكون مصب اهتماماته، يشاركها الفراش والأحلام، ينجب منها الكثير من الأطفال، يفكرون في الغد وكيف سيتشاطران حمل صخرة سيزيف. كان كلامه يلامس اهتمامات أي امرأة ترغب بالاستقرار، ولم أكن قط أفكر في الاستقرار ولا أن أحمل

صخرة سيزيف مع أحد، ركن سيارته جانبا وأكد أنه غير مهتم بكل ما مر من حياتي، الأهم أن نكون معا.

كنت أعلم أنه رجل شرقي ولو أنه تلقى تعليمه بالخارج ويريد أن يعتبرني غربية بحلة عربية ليقنع نفسه باختلاف منهجي في الحياة، كان كاذبا، وكنت أخشى أن يصبح أميرا ليليا يتحول في الصباح الباكر لوحش مرعب، أصبحت أشعر بضيق التنفس بسبب احتكاره ليلتي كل ما أردته أن أعود للفندق وأنام، فقد تعبت أردت أن أتحرر من شبيه زوجي الأول. كلاهما متشابها، وقد أتعبتني نفسي، كانت كل أمنيات أن أعود لوحدتي وأنام.

6

غـادرت في الصـباح البـاكر منـزل الفتى صـاحب العينـين المختلفتين، مصممة على عـدم العـودة، وكان عازما على جعلي أعود، شـدني عالمه المنحل إليه، أكثر منه. انضممت له ولرفاقه المجـانين، شـاردون ضـالون غيـر أن ذكاءهم وعطاءهم العلمي ربما يشـفع لهم، تعرفت على جانب آخر في، عشـق الليل وكم كنت قادرة رغم كل التأثيرات على إخفاء حقيبة ذكرياتي، كنت أرفض أن يحاسبني أحد، قديما كان زوجي يظلم الناس، اليوم أنـا أظلم نفسي فقـط. ووحـدي لـدي الحـق في معاقبـة نفسي، ولذلك ما كنت أفعله وأنا أتغير جذريا بتعرفي على الشلة التي أصبحت أنتمي إليها، شلة النار faire boyشكلنا فرقة غنائية متميزة، كنت أكتب لهم الكلمات وألحنها، تعزف الفرقة وأغني إلى جانبهم، كنا ندعو إلى السلام فقط، أكثر ما كنت أحب طريقة لبسنا، ملابس لا تتبع الموضة بل تتبع الفريق ووحدته فقط، كنت أعشق سباق الدراجات النارية الليلي، كنت أحب حلقتنا التي كنا نشكلها حول النار، قرب البحر، ونحن نعزف ونغني كصوت واحد ينطلق من ناي راع بسيط. كنت حينها أقيم مع وليد في شقته، وضعنا حدودا لعلاقتنا، وتزوجنا. بدون علم والديه، وكان كلانا متزنا في عهده بالانفصال إذا ما شكلت

علاقتنا مصر إزعاج للآخر، كنا منسجمين، ما أروع أن يلاقيك القدر بمهندس معماري تخصصه دراسة الفسيفساء، كنت أشبه بقطعة أثرية بالنسبة إليه، استطاع كلانا أن يشفي الآخر من جراح الماضي ومواجعه، رغم أني أكبره بالسنتين، ما كان الفارق ليخلق عائقا، ورغم كل ذلك التفاهم والاحترام الذي ناسق وجمل وجعل سماءنا صافية جعلنا ننتظر تخوف الانفصال، فقد كانت تلك النهاية الطبيعية لزواجنا حسب الاتفاق. تعلمت من وليد الكثير من الأشياء الجميلة، كيف أستمتع بالنجوم وأمارس المانترا، أقوم عند بداية الصباح، تعلمت منه كيف أغني وأعزف وأجعل من اللحن الخيط الذي يلم شتات الكون، تعلمت منه كيف أتوقف كل يوم أمام محكمة نفسي لأحاسبها على أخطاء كثيرة ربما اقترفتها سهوا أو قصدا في حق الآخرين وحق نفسي. علمني وليد الكثير من الأشياء، ولعله كان أهم قنطرة لأمر للجزء الآخر من حياتي، كان غريبا وكان يمتلك قدرات خارقة شدتني إليه أكثر، خصوصا قدراته على رؤية أشياء لا نستطيع نحن البشر العاديون أن نراها أو حتى نؤمن بإمكانية حدوثها خارج حدود القصص والأفلام السنيمائية، كنت غير مضطرة لأن أرتدي ملابس تسترني فقد كانت عيونه المتباينة اللون تستطيع أن تراني، كنا صديقين قوين أكثر من زوجين، كان العقد الذي

وثق لهذه العلاقة صمام أمان من مجتمع منافق من الممكن أن يدمرنا في لحظة وفية جمعتنا باختيار.

انفصلنا عندما أقترب موعد عودته لبلدته، حيث سيستقر بجانب والده الفلاح البسيط، يتزوج فتاة من اختيار أبويه، ينجب منها الكثير من الأبناء كما حلم، ويسمي طفلته الأولى ابتهال، نصحته ألا يفعل كي لا يتذكرني ويظلمها بي، تركته يرحل ليبدأ حياة سعيدة، ولو كنت أحبه لجعلته يبقى إلى جانبي، لم أحبه قط، لكنه كان ضروريا بالنسبة لي في تلك اللحظة التي أحسن القدر إدخاله لحياتي.

عدت من جديد لوحدتي، أمارس فعل التأمل في أدق تفاصيل الظلام. ولم تكن تلك نهاية علاقاتي فقد استمرت إلى أن قررت أن أترك كل شيء عدا نظام وفعل الحياة على الورق بما أنه استطاع أن يتقبلني بجاهليتي، إلى أن ترتفع نسبة الشر في قلبه اتجاهي فيكتب لي انفصال جديد في حياتي.

جئنا إلى هذه الدنيا بمفردنا وسنغادرها بمفردنا.